

# الصِّيدلاني الأندلسي

أبو العباس النبائي (ابن الروميّة)

فاضل السباعي

ازدهر علم النبات والأعشاب في الأندلس ، ابتداءً من القرن الرابع الهجري ، (العاشر الميلادي) ، وشاع التداوي بالحشائش والأعشاب على أيدي علماء أندلسيين ، لعل من أبرزهم تلك الطليعة المؤلفة من سبعة من الأطباء والصيادلة والعشابين ، الذين كانوا في قرطبة على عهد الخليفة الأموي القوي عبدالرحمن الناصر ؛ وقد صحب هؤلاء العلماء الراهب نقولا ، الذي وصل الى قرطبة سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١م) ، موفداً من قبل صاحب القسطنطينية ، ليساعدهم في شرح وتفسير كتاب العشاب الإغريقي الأشهر ديسقوريدس ، الذي كان الامبراطور قد قدّمه هدية الى الخليفة الأندلسي تقرباً مع هدايا أخرى ، وكان الراهب نقولا يتقن اللغة الإغريقية - التي لم يكن في قرطبة من يتقنها - فضلاً عن لغته اللاتينية .

والذي كان من أعضاء هذه اللجنة السباعية ، أنهم فهموا فهماً جيداً مضمون كتاب ديسقوريدس المسمى « المادة الطبية Materia medica » (المؤلف في القرن الأول الميلادي) ، ولكنهم لم يحاولوا نقله الى العربية (وكان قد تمّ نقله قبل ذلك ببغداد نقلاً غير دقيق) ، لأنهم تجاوزوا هذه المرحلة الى ما هو أبعد :

● فقد أسقط العلماء الأندلسيون ، في دراستهم لهذا الكتاب ، النباتات التي ليس لها وجود في الأندلس ،

● ثم انهم أخذوا يتعرفون النباتات الأندلسية التي ليس لها في الكتاب ذكر ،

● كما أنه ظهر في الأندلس ، في ذلك الحين ثم في الأجيال التالية ، كثير من العلماء الذين عكفوا على تأليف الكتب والموسوعات في الحشائش والأعشاب ، منهم : ابن جُلجل ،

وابن وافد، وأمّية بن أبي الصلت، والغافقي، والادريسي، وأبو العباس النباتي،  
وضياء الدين بن البيطار... وغيرهم، وذلك كله إضافة إلى ما كان عليه «الأطباء»  
الأندلسيون عامة من عناية بالمداد واداءة بالأعشاب، كالطبيب الجراح أبي القاسم الزهراوي،  
وأطباء أسرة زهر وتخص منهم: عبد الملك - الجدّ، وزهر - الأب، وعبد الملك - الابن  
(صاحب كتاب التيسير في المداد واداءة والتدبير) وغيرهم كثير كثير.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن أبا العباس النباتي، المولود في اشبيلية  
سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م)، كان واحداً من أعظم العشّابين الأندلسيين. إلا أن  
ما يميّز به هذا الصيدلاني العشّاب عن نظرائه، أنه كان - إلى علمه بالأعشاب -  
«حافظاً» من المعنيين بالحديث النبوي الشريف، رواية وتصنيفاً. وإذا كان جهده العلمي قد  
مكّنه من أن يؤلّف خمسة كتب في الحشائش والنبات، فإن دينه وتقواه قد جعلاه  
يصنّف عندها يفوق ذلك من كتب الحديث. بيد أنه من المؤسف أن مؤلفات هذا العالم  
الكبير قد ضاعت كلها - في ما نعلم حتى اليوم - فلم يصل إلينا منها كتاب واحد!

وفي تقديرنا لأبي العباس النباتي - الذي تكتنيه بعض المصادر التاريخية بـ  
«ابن الرومية»، كنية «كان يكرهها ويقلقها» كما ذكر المؤرخ ابن عبد الملك  
المراكشي (١) - نؤكد أنه كان يتمتع بمزيتين علميتين لم تجتمعا معاً، وبهذا القدر من  
الوضوح، عند غيره من العشّابين أو الأطباء، في الأندلس أو في تاريخ الحضارة العربية  
الإسلامية.

**أولى هاتين المزيّتين أنه كان عالماً طلّعة**، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى.  
فهو يعيش المعرفة، ويتحرّى أسبابها، ويجري وراءها، وهو لذلك لم يلتزم القعود في  
مدينته اشبيلية، بل قام يطوف في أرجاء الأندلس، من سهل وجبل وبادية وساحل...  
وقد أتى لسان الدين بن الخطيب على ذكره في كتابه «الإحاطة...»، قال: «انه دخل  
غرناطة» غير ما مرة، لسماع الحديث وتحقيق النبات، ونقّر [أي: بحث وفتش]  
عن عيون النبات بجبالها؛ وقال في حقّه أيضاً: «انه كان «نسيج» وحده... وعجبة  
نوع الانسان في عصره وما قبله وما بعده، في معرفة (النباتات...) على اختلاف أطوار  
منابتها، حساً ومشاهدة وتحقيقاً... قام على الصنعتين، لوجود القدر المشترك بينهما،  
وهما: الحديث والنبات، إذ موادّهما الرحلة، والتقيد، وتصحيح الأصول،  
 وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان...» (٢).

على أن مطامح أبي العباس العلمية ما كانت لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس، بل  
استنهضت همته للقيام برحلة هي - في ظننا - أطول ما أنجزه نباتي عشّاب في تاريخ  
حضارتنا. وإذا كان تلميذه الأندلسي، ضياء الدين بن البيطار المالقي، قد سافر  
- كما يحدثنا معاصره مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة - «إلى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد  
الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعائنه في  
مواضعه» (٣)، وذلك قبل أن يستقر في القاهرة ثم يلقي وجهه ربّه في دمشق، بعد  
أن صنف أكبر موسوعة عربية في بابها «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»...

أقول : اذا كان ابن البيطار قد فعل ذلك ، فان الرحلة العظمى التي حققها أبو العباس كانت أطول من ذلك مسافة ، ولا تقل في مضمارها خطراً !

فقد غادر النباتي أبو العباس الحافظ ، اشبيلية سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، مجتازاً البحر الى العدو المغربي . ومن هناك أخذ ينتقل بين مدن شمال افريقية وسواحلها وسهولها وفيافيها ، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية ، مستمعاً الى ما يخبرونه به من معلومات عن النباتات التي يعهدونها في مناطقهم وينتفعون بها في غذاء ودواء ، حتى نزل الاسكندرية فالقاهرة ، وسار على ضفاف النيل ٠٠٠ وهو ، في ذلك كله ، يبحث عن النباتات والأعشاب ويتحقق من منافعها . والطريف أنه اعتذر ، شاكراً ، تكريماً بذله له صاحب مصر والشام « الملك العادل » بأن يقيم عنده ويكون طبيباً ورئيساً !

وبعد مصر ، زار أبو العباس الديار المقدسة فأدى الفريضة ، ثم توجه الى الشام والعراق ، وأمن في رحلته شرقاً وشمالاً حتى اقليم خراسان (يقع اليوم في أفغانستان) ، ومضى فيه حتى مدينة « مرو » (تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفيتية) ، وكانت مرو ، آنذاك ، حاضرة غنية برجالها وعلمائها وفقهاءها ، وكانت مكنتها العامة والخاصة تزخر بالكتب والمخطوطات ، كما يحدثنا باستفاضة ياقوت الحموي ، الذي جمع من تلك الخزائن معظم موضوعات كتابه « معجم البلدان » (٤) .

ولقد مرَّ أبو العباس بمدينة « حران » (تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم) ، في رحلته العلمية هذه ، التي استغرقت عامين وبعض العام ، وتمخضت عن تأليفه كتابه الفريد « الرحلة النباتية » !

وأما المزية الأخرى ، التي تمتع بها أبو العباس النباتي وفاق فيها نظرائه من العشائين ، فانها تتجلى في حرصه على تحليله النباتات (أي وصفها وصفاً علمياً) ، وفي دقته في هذا الوصف ٠٠٠ وقد تستنفذه التحلية للنبته الواحدة حتى يكاد لا يُبقي زيادة لمستزيد !

لنستمع اليه وهو يصف النبتة المسماة « كف-مريم » ، يقول :

« نبتة منبسطة على الأرض ، رجليه الورق الى الاستدارة ما هي ، صلبة الأغصان ، في ورقها جعودة ويسير قبض ، مزغبة ما هي ، شديدة الخضرة ، تتكون على الأرض في استدارة على قدر الشبر ، تخرج ، فيما بين تضاعيف الورق على الأغصان ، زهرة دقيقة الى الصفرة ما هي ، على شكل زهر الرجلة ثم يسقط ، فيخلفه بزر أصغر من الحلبة صلب يسقط ، وتورق ، وتنقبض الأغصان ، وترتفع على الأرض حتى ترجع على الشكل الذي يتعارفه الناس على حسب ما تجلب اليهم ٠٠٠ » .

ويذكر المواضع التي وقع فيها على هذه النبتة : « وقد رأيتهما بصحراء مصر ٠٠٠ وأيضاً بالمغرب ، بصحراء سجلماسة ونهرها . ورأيت [منها] ٠٠٠ » موجعاً بجبال بيت المقدس ،

صغيراً ، أبيض اللون ، دقيق العيدان ، مدحرج الخلقة ، دقيق البزر ، وهذا النوع موجود أيضاً بطريق عسقلان في الصحارى .»

ولا يفوته أن يعلن بثقة العارف : « وقل من يعرف [هذه النبتة] على الصفة التي وصفت ! ويضيف باعتداد مقرون بالتواضع : « ولم يحلها أيضاً أحد قبلي ، فيما علمت » (٥) .

**والتعريف العلمي المعاصر** لهذه النبتة ، كما ورد في « معجم الشهابي لمصطلحات العلوم الزراعية » ، أنها « كف- مريم » ، أو « كف- عائشة » ، أو « شجرة الكف » Rose de Jerico, St. Mary's Plover : نبات صغير سنوي بري من الصليبيات ، ينبت في أنحاء فلسطين والفور وسيناء وغيرها ؛ ومتى تم نموه وجف ، تقتله الريح وتذهب به ، حتى إذا صادف مكاناً رطباً عاد إلى النمو .

وبدا أن شجر « الخيار شنبّر » ، واسمه العلمي Cassia fistula ، قد استرعى انتباه أبي العباس النباتي منذ نزل ثغر الاسكندرية ، ثم ما عثم أن رآه في القاهرة . . . فقال في كتابه « الرحلة النباتية » : « هو شجر معروف ، وثمره مألوف بمصر واسكندرية وما والاها ، ومنهما يحمل إلى الشام . وهو أيضاً بالبصرة كثير ، ومنها يحمل إلى المشرق » .

ثم وصفه وصفاً يجمع بين الدقة العلمية والوصف الشعري . . . قال :

« شجرة كقدّر شجر الجوز ، وورقه كورقه ، إلا أنه أصغر منه قليلاً ، وأطرافه حادة ، وهو أصلب من ورق الجوز ، وفيه شبه من ورق الشاهبلوط .

« ويزهر زهراً عجباً ، لم تر عيني مثله جمالاً وحسناً في خلقة ، وذلك أنه يخرج من بين تضاعيف الورق ، في شهر سبتمبر [أيلول] ، وهو في عرجون طوله نحو ذراع ، يخرج من جهاته الأربع عروق في طول الأصبع ، وتنفّث أطرافها عن زهر ياسميني الشكل في قدر خمس ورقات في كل زهرة في نهاية الصفرة ، فيأتي شكل العرجون ، وهو متدلّ بين تضاعيف الأغصان ، كأنها ثريامسروجة .

« وهذا الزهر ، إذا أن أن يخرج الثمر ، يستحيل لونه إلى البياض ، ويدوي ، ويسقط ، وتبرز أنابيب القضيب الشنبرية على الشكل المعروف ، منها الطويل ومنها القصير ، عناقيد كعناقيد الخرنوب ، تتدلى كأنها العصي ، شديدة الخضرة ، ثم تسود إذا انتهت » (٦) .

وبدا ، أيضاً ، أن وصفه للنبات كان يستغرقه أحياناً ؛ إلا أنه يشير ، غالباً ، إلى ما فيها من منافع للأبدان . . . فبعد تحليله للنبتة التي سماها « الليقية » أو « الليقية » (بالفاء) ، تلك التي رآها بصعيد مصر ، وفي الحجاز حيث يسمونها « العلقم » ، وفي أرض الفور بفلسطين ، وبيطن مرو في خراسان ، يقول : ان جِراء هذه النبتة ،

التي هي على شكل جِراء « قِثَاء الحمار » إلا أنها أكبر ٠٠٠ ان في داخل هذه الجِراء  
ثمراً دلائعي الشكل ، « وهو عندهم نافع لحيات البطن » (٧) .

★ ★ ★

ان أبا العباس النباتي ، العالم المسكون بهاجس المعرفة وما يُمليه ذلك عليه من  
الحرص على التتبع والتحري والاستقصاء، قد حدَّثتنا عنه المصادر التاريخية المعاصرة  
له واللاحقة على مدى أربعة قرون ، بأن ترجمت لحياته وعرفتنا بشخصه بنبيذ  
صغيرة كان المؤرخون يتناقلونها ويتداولونها، موجزين أو متزيدين .

والمصادر التي أُلِّت بترجمة أبي العباس هي ، حسب تسلسلها الزمني :

- ١ - « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأَبَّار (ت ٦٥٨ هـ) ،
- ٢ - « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨ هـ) ،
- ٣ - « القدر المعلى في التاريخ المعلى » ، وبالأحرى « اختصاره » ، لابن سعيد المغربي  
الأندلسي (ت ٦٨٥ هـ) .
- ٤ - « الذيل والتكملة الكتابي الموصول والصلة » لابن عبد الملك الأنصاري  
المرآكشي (ت ٧٠٣ هـ) ،
- ٥ - « تذكرة الحفاظ » للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) ،
- ٦ - « الاحاطة في أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) ،
- ٧ - « الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب » لابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ) ،
- ٨ - « نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » للمقري (ت ١٠٤١ هـ) .

وقد بدا أن واحداً من هؤلاء المؤرخين القدامى لم يتوقف عند صاحبنا أبي العباس  
ليكتب عن علمه الغزير ! ولكن لاح ، أيضاً ، أنه لم يخطر لواحد من أبناء القرن العشرين  
أن يفعل ذلك ، وفي تراثنا الكبير مئات العلماء ، بل الأُلوف ، الشاؤون في بطون  
المخطوطات ، هذه التي تشملها عتمة الخزان العربية والعالمية ٠٠٠ فكيف يمكن  
أن يُدرس علم هذا الرجل ، وقد امتدت يد الإنسان والكوارث والزمن الى مؤلفاته  
الخمسة عشر ، فلم يصل إلينا منها - في علمي حتى الساعة - مؤلف واحد ؟ وهل تقوم  
دراسة ، حول علم عالم ، وعلمه غائب أو مفقود ؟

ضاعت مؤلفات أبي العباس النباتي كلها ، ما تعلق بعلم الحديث وكذلك تلك التي  
صنفها في النبات ، وعددها - كما أحصيتها في المصادر - خمسة ، هي :

- ١ - « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » ،
- ٢ - « شرح حشائش ديسقوريدس وأدوية جالينوس » ،
- ٣ - « مقالة في تركيب الأدوية » ،
- ٤ - « التنبيه على أغلاط الغافقي في أدويته » ،
- ٥ - « الرحلة النباتية » .

أجل ، ضاعت مؤلفاته كلها • ولكن المصنفين في أمتنا جروا على أن يأخذوا العلم والمعرفة بعضهم عن بعض ، بأن يستخرج أحدهم من كتب السابقين نصوصاً يستشهد بها في كتابه دعماً لرأيه أو استيفاءً للموضوع •

والذي فعله العشتاب الأندلسي ابن البيطار - معاصر أبي العباس وتلميذه - انه ، استجابة لطلب صاحب مصر « الملك الصالح أيوب » ، قد انصرف الى اعداد موسوعة جاءت في أربعة أجزاء هي « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، جمع فيها ، بإحاطة استثنائية ، أسماء المفردات المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، فكان يسمى المفردة النباتية ، وأحياناً الحيوانية والمعدنية ، ويدرج تحتها ما وصل الى علمه من معارف الأطباء والنباتيين والعلماء حولها ، وذلك بأن يذكر اسم العالم تليه المعلومة المنسوبة اليه • وكان من نصيب أبي العباس أن المصنف استقى منه معلومات - حسب مسرد أعدده - في مئة ومفردتين اثنتين !

ولدى رجوعي الى هذه الموسوعة ، وقفت فيها على نماذج وافية من علم أبي العباس النباتي ، استمدتها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » ، الذي كان قد ألّفه من وحي رحلته المشرقية •

ومما لاحظته في المفردات ، المئة والاثنتين ، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات من أبي العباس ، أن ما يرد في المفردة الواحدة من المعلومات كان نصيب أبي العباس فيها غالباً هو الأوفى ؛ وأحياناً لم يكن يرد في المفردة الا ما يقوله نباتيئنا الطلعة وحده ، وهذه أحصيتها فكانت ٣٨ مفردة •

ولكن ما يسترعي الانتباه ويستحق مزيداً من الإعجاب ، أن ٦٦ مفردة (من ال ١٠٢) قد انفرد عالمنا الإشبيلي بتحليلها فلم يشاركه في التحلية أحد ، وذلك يؤكد تفوقاً علمياً له على أقرانه من العلماء في المضمار الواحد •

★ ★ ★

□ الحواشي :

- ١ - « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ١ : ٤٨٧ ، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت (د٠ت) •
- ٢ - « الاحاطة في اخبار غرناطة » ١ : ٢١٣ و ٢٠٨ ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، مكتبة الغانجي ، القاهرة ، ط الثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ •
- ٣ - « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، ص ٦٠١ ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت (د٠ت) •
- ٤ - « معجم البلدان » ٥ : ١١٢ - ١٤ ، طبعة مصورة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ •
- ٥ - « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » لابن البيطار ، ٤ : ٧٤ ، طبعة مصورة ، مكتبة المثنى ، بغداد (د٠ت) •
- ٦ - « جامع المفردات ٠٠ » ٢ : ٨١ •
- ٧ - « جامع المفردات ٠٠ » ٤ : ١١٧ •